الجزء الأول

••••••••••

أطفالنا المستعجلون

1

أطفالنا المستعجلون

إن مفهوم الطفولة، البالغ الأهمية بالنسبة لطريقة الحياة الأمريكية التقليدية، مهدد بالانطفاء في المجتمع الذي رسخنا أسسه. لقد أصبح طفل اليوم الضحية غير المقصودة لضغطٍ طاغ ـ الضغط الذي تولد من التغيير الاجتماعي السريع والمذهل والآمال المتنامية باستمرار. يعيش الوالدان اليوم في قدر بخاري مضغوط بالمطالب المتنافسة، والتحولات، وتغير الدور، والشكوك الشخصية والمهنية، التي ليس لأي منهما يد في توجيهها. إننا نسعى إلى الانعتاق من الضغط كلما أمكننا ذلك وليس من مدى خاضع لسيطرتنا سوى البيت. فهنا نستمتع بحقيقة (أو وهم) أننا نلعب دوراً له شأن.

إذا تمخضت تربية الطفل عن شدة فإننا نأمل أن نرفع جزءاً من عبء القلق والتوتر باستعجال نمو الطفل ومعاملته معاملة الكبار. ونجعله يشاركنا في رفع عبء الحياة. ونحن بهذا لا ننوي إلحاق الأذى بأطفالنا، بل على العكس، فقد أصبحنا،

كمجتمع، نتصور أن النضج السريع مفيد للجيل الفتي. لكننا نؤذي أطفالنا فعلاً عندما نستعجل انقضاء طفولتهم.

وقد كان المهندس الرئيسي لنظرتنا الحديثة للطفولة هو الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو. فهو أول من انتقد الطرق التعليمية التي تقدم المعلومة من منظار الكبار فقط، بما يعكس قيم الكبار ومصالحهم. قال روسو إن التربية الكلاسيكية - أو قيمة نقل تراث ثقافي/اجتماعي - أمر جيد لكن عملية التعلم يجب أن تأخذ بالاعتبار مفاهيم الطفل ودرجة تطوره. كتب روسو في كتابه الكلاسيكي إميل أن «الطفولة لها طريقة خاصة في النظر إلى الأشياء وفي التفكير والإحساس، وليس أحمق من محاولة استبدال طفولتنا بطفولتهم». وقد لاحظ أن الأطفال يصبحون كباراً من خلال أربعة مراحل، وكما أن لكل مرحلة مقوماتها، فإنها بحاجة إلى مجموعة متفقة من الأهداف التعليمية اللائقة[1].

هذه الفكرة التي تصور الطفولة مرحلة متميزة تسبق حياة النضج أصبحت متداخلة تماماً مع المفاهيم الحديثة للتعليم الشامل والأسرة النواة الصغيرة (الأم والأب والأطفال - وليس الأسرة الموسعة التي كانت معروفة في أزمنة سابقة) في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر في أوج الثورة الصناعية الأساسية. يفسر الأخصائي المستقبلي ألفين توفلر Alvin Toffler هذا الانتقال بقوله: مع انتقال العمل من الحقول والبيوت، لم يعد هنالك بد من تهيئة الأطفال لحياة المعمل.

وإذا أمكن تهيئة استيعاب الجيل الفتي في النظام الصناعي، يصبح التعامل مع مشاكل النظام الصناعي أكثر سهولة فيما بعد. وكانت النتيجة بنية مركزية أخرى لجميع المجتمعات (الحديثة) وهي: التعليم الجماعي[2].

بالإضافة إلى التعليم العام والشامل والمجاني اتجه المجتمع الجديد نحو خلق وحدات أسرية أصغر. يكتب توفلر: «لتحرير العمال للعمل في المعمل، حولت مهام أساسية للأسرة إلى مؤسسات اختصاصية جديدة. فحول تعليم الطفل إلى المدارس. ونقلت العناية بالمسنين إلى بيوت الفقراء أو منازل المسنين أو بيوت الرعاية. وقبل هذا وذاك تطلب المجتمع الجديد قابلية التحرك والانتقال. أصبح بحاجة إلى عمال يتبعون فرص العمل من مكان إلى آخر. وعندما تشتت شمل الأسر بالهجرة إلى المدن، وعصفت بها الأهواء الاقتصادية، انشقت الأسرة عن الأقارب غير الضروريين، وأصبحت أصغر وأكثر حركة وأكثر ملاءمة لحاجات مكان العمل»[3].

في الوقت الذي تقدمت عملية التحول نحو الصناعة بشكل حثيث أولي التعريف الثقافي للطفولة كمرحلة حياتية حذرة دعماً اجتماعياً قوياً في أواخر القرن التاسع عشر مع ترسيخ علم نفس الطفل كنظام علمي. وقد بدأ العمل في هذا الحقل مع ما يسمى سيرة الطفل - وهي روايات مفصلة بشكل دقيق يقدمها آباء يراقبون تصرفات أطفالهم. وقد قدم برونسون آلكوت Bronson Alcott والد لويزا ماي Louisa May دراسة من ذلك القبيل،

وكذلك فعل ميليسنت شين[4] Milicent Shinn. أما جان بياجيه Jean Piaget، الطبيب النفسي السويسري الشهير، فأخذ وقتاً مستقطعاً من دراساته الجماعية للأطفال ليتفرغ للمراقبة (والكتابة عن) أولاده الثلاثة[5].

في مطلع القرن بادر جي ستانلي هول G. Stanley Hall الذي يُعتبر مؤسس الدراسة المخبرية للأطفال بإطلاق «حركة دراسة الطفل» السيئة الطالع. وأثبت الاستبيان المستفيض الذي وضعه ووزعه الآباء والمدرسون على آلاف الأطفال أنه غير دقيق ومليء بالأخطاء. إلاّ أن هول كان أوفر حظاً في تأسيس جامعة كلارك Clark University وتمكنت دائرة علم نفس الطفل، التي رعاها هول بكل اهتمام وحرص، من ريادة البلاد في الأبحاث والتدريب في ذلك الحقل الجديد، وخرّجت علماء بأهمية آرنولد جيزيل Arnold Gesell ولويس تيرمان Lewis Terman.

بعد الحرب العالمية الثانية، دخل علم نفس الطفل مرحلة ازدهاره. وفي حين لم يكن هناك قبل الحرب سوى مجلتين علميتين تغطيا أبحاث تطور الطفل، أصبح هناك اليوم ما يربو على عشرة مجلات. وجميع أقسام علم النفس في الجامعة تضم أطباء نفسيين يعكفون على دراسة مواضيع منوعة كالمراهقة، والتعلم عند الأطفال الصغار، والاختلاط بالآخرين، والتعامل مع الأنداد، والتطور الجنسي، والتعلق والفقد، وقياس الذكاء، ومعوقات التعلم، وتعلم اللغات، وما إليها. خلاصة القول إننا

جمعنا مكتبة كبيرة من البيانات والمعرفة حول مرحلة من الحياة نسميها الطفولة. المفارقة التي لا يستهان بها هي أنه في الوقت الذي يهدد ضغط الحياة الاجتماعية والتغيير وجود الطفولة، أصبحنا الآن نعرف عن الطفولة أكثر مما كنا نعرفه في أي وقت في الماضي.

الملفت أيضاً هو درجة توفر هذه المعرفة العلمية واستيعابها من قبل الجمهور العام، لأن التوسع في أبحاث دراسات الطفل ترافق بتوسع في نشر الكتب عن الأطفال. وكثيراً ما يلجأ أطباء نفسيون مشهورون مختصون بعلم نفس الطفل إلى «ترجمة» نتائج الأبحاث بشكل يمكن من تطبيقها بشكل مفيد. في وقت مبكر يعود إلى سنة 1894 أطلع الطبيب النفسي الشهير تي. ايميت هولت T. Emmet Holt قراء كتابه Care and Feeding of Children على كيفية منع التسلخ فقال: «أولاً يجب تفادي استعمال الصابون بكثرة والابتعاد عن الصابون القوي، ثانياً غسل الجسم بالماء بعناية، ثالثاً: تفادي الفرك بشدة، سواء أثناء أو بعد الحمام، رابعاً استعمال البودرة في جميع ثنيات الجلد. وهذا أمر بالغ الأهمية في الأطفال السمان جداً»(6). كان هولت الأول في خط بدا بلا نهاية من «المترجمين» المشهورين (وأولئك الذين ليسوا مشهورين كثيراً) الذين ترجموا علم نفس الطفل من لغته العلمية إلى تعابير مألوفة من قبل العامة. ربما كان الأكثر شهرة هما آرنولد جيزيل Arnold Gesell في كتاب The Child from Birth To Five

وكتاب الدكتور بنجامين سبوك Dr. Benjamin Spock الذي لا يضاهي في تأثيره وهو Infant and Child Care[7]. كل سنة يظهر كم هائل من الكتب، بعضها كتب بشكل جيد جداً وبعضها الآخر أقل شأناً، تحمل عناوين مثل:

Working and Caring, The Good Enough Parent , Ourselves and our Children, How To Raise your Child to be a Winner, know your Child , Growing With your Child, Teenagers[8]

والدورات وورشات العمل موجودة في كل مجتمع في البلاد لإرشاد ومساعدة الكبار المعنيين بتربية الجيل الفتي. فإذا عجلنا نمو الأطفال بسرعة اليوم، فإن ذلك حتماً ليس بسبب الجهل.

نسخة مصغرة عن الكبار

الضغوط التي تمارس اليوم على أطفال الطبقة الوسطى كي يكبروا بسرعة تبدأ في أوائل الطفولة. وقد تولدت أبرز تلك الضغوط، وهو ضغط إحراز ثقافة مبكرة، من فهم متغير للتبكير. فمنذ عقود عدة كان التبكير ينظر إليه بشك كبير. إذ ساد الاعتقاد بأن الطفل العبقري يصبح في المستقبل راشداً عصابياً، ومن هنا كانت عبارة «من ينضج مبكراً يفسد مبكراً!» وأصبحت محاولة تسريع حيازة الأطفال مهارات علمية تعتبر دليلاً على الرعاية الأبوية السيئة.

وخير مثال على موقف كهذا نجده في حالة ويليام جيمس سيديس William James Sidis ابن الطبيب النفساني. ولد

سيديس في مطلع القرن، وأصبح طفلاً عبقرياً مشهوراً دخل جامعة هارڤارد في عمر إحدى عشرة سنة. أعطت أوراقه في الرياضيات العليا انطباعاً بأنه سيكون له شأن كبير في ذاك المجال. وسرعان ما جلب سيديس اهتمام الصحافة، التي أبرزت إنجازاته كطفل. إلاّ أن سيديس لم يذهب أبعد من ذلك، وبدا كمن يتنقل بلا هدف من عمل إلى آخر. في سنة 1930 كتب جيمس ثوربر James Thurber عن شخصية سيديس في مجلة نيويورك تايمز ماغازين Newyork Times Magazine تحت عنوان «أين هم الآن؟» ووصف حياة الوحدة المؤسفة التي يعيشها سيديس حيث انصب جل اهتمامه على رصد انتقال عربات الشارع في جميع أرجاء العالم.

إلاّ أن هذه المواقف تغيرت بشكل ملحوظ خلال عقد الستينيات عندما أمطر الآباء بإملاءات مختصة وشبه مختصة حول أهمية التعلم في السنوات الأولى من العمر. فقيل للأبوين إنهما إذا لم يبدأا بتعليم الأطفال في صغرهم فإنهم يضيعون عليهم فرصة ذهبية للتعلم. واليوم هناك دور حضانة تدعم ضريبياً في كل ولاية، كما أن قرابة ثلاث وعشرين ولاية يفكرون في برامج لأبناء الأربع سنوات. في كثير من المدارس أصبحت رياض الأطفال الآن «أخفض بدرجة واحدة» من الصف الأول، والطلاب يخضعون لامتحانات، ويتعلمون بدفاتر عمل، ويكلفون بأداء وظائف بيتية، ويحملون إلى البيت بطاقة تنبي عن تقدمهم. ينتج عن هذه العجالة التعليمية أن 10 إلى 20 في المئة

من أطفال رياض الأطفال «يحتفظ بهم» أو يوضعون في صفوف «انتقالية» تحضرهم للشدة الأكاديمية للصف الأول!

كيف حدث هذا التحول الراديكالي في المواقف؟ كان هناك أسباب كثيرة، قد يكون من أكبرها الهجوم على التعليم «التقدمي» الذي طبق في الخمسينيات من القرن العشرين واعتبر معظم المواد التعليمية من الطرز القديم. فقد دفع إطلاق الروس لـ (سبوتنيك) في سنة 1957 بالأمريكيين في سُفر من النقد الذاتي شجع حركة المناهج الدراسية الكاسحة في الستينيات التي أتت بالأكاديميين من الجامعات الكبرى لكتابة المناهج الدراسية. إلاّ أن كثيراً من الأكاديميين كانوا يعرفون اختصاصهم العلمي لكنهم لا يعرفون الأطفال، وكانوا مفرطين في تفاؤلهم حيال الكم الذي يستطيع الطفل أن يستوعبه والسرعة التي يتعلم بها. هذا التفاؤل لخص في عبارة جيروم برونر Jerome Bruner الشهيرة: «أي موضوع يمكن أن يعلم بكفاءة بشكل نظيف ثقافياً لأي طفل في أي مرحلة من مراحل تطوره»[8]. البون شاسع بين هذه العبارة وعبارة: «من ينضج مبكراً يفسد مبكراً!».

تلقى هذا الاتجاه نحو الضغط الأكاديمي المبكر مزيداً من الدعم من قبل حركة الحقوق المدنية، التي أبرزت الأداء السيء للأطفال المحرومين في مدارسنا. أصبح المعلمون موضع تهجم من قبل المثقفين الرواد أمثال جون هولت John Holt[9] وجوناثان كوزول Jonathan Kozol[10] وهيربرت كوهل Herbert Kohl[11]، وأجبروا على الدفاع عن عدم نجاحهم بإسقاط اللوم

على أشياء أخرى. قالوا إن أطفالهم لم يفلحوا لأنهم لم يأتوهم معدين إعداداً جيداً. لم يكن أساس الفشل العلمي للأطفال المحرومين يعود إلى ما يجري في غرفة الصف وإنما ما لم يحصلون عليه في البيت، ومن هنا كان الرأي القائل إن دمج الطلاب كفيل بتسوية تفاوتات البيئة.

وكان أحد تبعات هذا القلق حيال السنوات المبكرة زوال مفهوم «الاستعداد». كان مفهوم الاستعداد قد أخذ نصيبه من التمجيد على أيدي الأطباء النفسيين التطوريين مثل آرنولد جيزيل الذي طرح فكرة المحدوديات البيولوجية للتعليم[12]. اعتقد جيزيل أن الأطفال ليسوا مستعدين بيولوجياً لتعلم القراءة قبل بلوغهم «عمراً عقلياً» (اختبار علامات يعطى الطفل بموجبه عدداً معيناً من الأشهر مقابل كل إجابة صحيحة) يبلغ ست سنوات ونصف. إلاّ أن التركيز على التدخل المبكر والتنبيه الثقافي المبكر (حتى للوليد) جعل مفهوم الاستعداد يبدو موضة قديمة فات أوانها. وفي دوائر التعليم المختصة كان الاستعداد في موضع متقلقل بعد أن كان مفهوماً تعليمياً محترماً. ولكن في أواخر الثمانينيات عاد الاستعداد إلى دائرة الضوء، مع تزايد عدد الأطفال الذين يحتفظ بهم في روضة الأطفال أو يوضعون في صف انتقالي لأنهم ليسوا «مستعدين» لمتطلبات الصف الأول.

وليس الضغط باتجاه الإنجاز الأكاديمي المبكر سوى واحد من ضغوط معاصرة كثيرة باتجاه جعل الأطفال يكبرون بسرعة. أما لباس الأطفال فأمر آخر. فمنذ ثلاثة أو أربعة عقود كان

الصبيان في عمر قبل البلوغ يرتدون بنطالاً قصيراً وبنطلوناً قصيراً واسعاً مزموماً عند الركبة، إلى أن يبدأوا بحلاقة ذقونهم. وكان ارتداء الصبي بنطالاً طويلاً طقساً انتقالياً حقيقياً. ولم يكن مسموحاً للفتيات باستخدام مواد التجميل أو ارتداء الجوارب الحريرية قبل سن المراهقة. كانت الثياب بالنسبة لكلا الجنسين وسيلة لتمييز وعزل الأطفال، تشير للكبار بأن هذه الفئة يجب أن تلقى معاملة مختلفة، قد تكون بتدليلهم، مما جعل التصرف الطفولي سهلاً بالنسبة للأطفال. أما اليوم فالأطفال دون سن المدرسة يرتدون نسخاً مصغرة عن ثياب الكبار. من الرداء السروالي (أوفر أول) إلى قمصان لاكوست وسواه من مصممي الأزياء الآخرين، جميع أزياء الكبار متوفرة للأطفال (مرفقة بمجموعة كبيرة من الصور التي تمثل صغار المراهقين يعرضون أزياء الجينز). تجدون أدناه نموذجاً من مقال كتبه مؤخراً تيم آپلو Tim Appelo، يقول إن أي اتجاه تأخذه أزياء الكبار فإن الأزياء المخصصة للصغار ستتبعه حتماً.

> إذا تجول الناس يرتدون Reeboks فإن صغارهم سيدرجون بالـ«ويبوكس Weeboks». يضع الآباء التنفيذيون في برنامجهم اجتماعات مع سباق يوم فيلوفاكس Filofax Day Runner، فيعمد الصغار إلى سباق لعب فيلوفاكس Filofax Play Runner كي يرصدوا حفلات عيد الميلاد وسواها من مناسبات شبكات البوفو Boffo Networking. وقد أطلقت شركة سوني مؤخراً حملة هائلة عمادها 2 مليون دولار بعنوان أول جهاز سوني أقتنيه

My First Sony أول خط صناعي رئيسي من المعدات الإلكترونية المعقدة المصممة خصيصاً لصغار المستمعين «لماذا يترتب على الآذان الصغيرة أن تستمع إلى الأصوات الصغيرة؟» (كما أن واحداً من صانعي العطور يروج لعطر للأطفال باسم Whiffy. Wear Cologne for Kids 10 دولار)، وهناك إعلان آخر عن عطر يصور طفلاً في الرابعة بثياب بيضاء ميامي فايس Miami Vice يتكئ بشكل خليع على سيارة مرسيدس، مع نسخة من «غريغوري للشاب الصغير صممت خصيصاً للسيد الأنيق الصغير الذواق»[13].

عندما يلبس الصغار كالكبار فالأرجح أن يتصرفوا كالكبار أيضاً ويقلدوا أعمالهم. يصعب السير كشخص كبير ذكر إذا كنت ترتدي سروالاً فضفاضاً من القطن المضلع يصدر صوتاً مرعباً. لكن الصبي إذ يرتدي بنطالاً طويلاً يستطيع أن يمشي كالرجال، والفتيات الصغيرات إذ يرتدين بناطيل الجينز الضيقة يستطعن المشي كالنساء. يصعب اليوم أن نرى الأطفال أطفالاً وليسوا كباراً مصغرين، لأن الأطفال يرتدون ما يرتديه الكبار ويتحركون مثلهم.

دليل آخر على الضغط باتجاه النمو السريع نجده في التحول الذي طرأ على برامج معسكرات الصيف للأطفال. ما زال هناك كثير من معسكرات الصيف التي تقام للسباحة، والملاحة وركوب الخيل، والرماية، والتحلق حول نار المعسكر، وهي نشاطات ما زالت في ذاكرتنا كأطفال، إلاّ أن

هناك أعداداً متزايدة من معسكرات الصيف التي تقدم تدريبات خاصة في مجالات كثيرة ومنوعة كاللغات الأجنبية، والتنس، والبيسبول، والرقص، والموسيقى، وحتى الكومبيوتر.

وربما كان الأكثر شيوعاً بين هذه المعسكرات هو تلك التي تتخصص في رياضات تنافسية مثل الكرة اللينة، وتدريب الوزن، والتنس، والغولف، وكرة القدم الأمريكية، وكرة السلة، والهوكي، وكرة القدم، واللكروس، والرياضة الجمبازية، والمصارعة، والجودو، والتزلج، وركوب الأمواج. «مهما تكن الرياضة هناك معسكر (أو عشرة أو مئة معسكر) مخصص لتعليم أدق النقاط المتعلقة بها وغالباً ما تكون هذه المعسكرات بإشراف، إما حقيقي أو إسمي، إحدى الشخصيات اللامعة في رياضة معينة، وكثير من تلك المعسكرات تضم رياضيين محترفين في طواقمها. البرنامج اليومي صارم، يتضمن دروساً فردية وجماعية، وجلسات تدريب ومباريات، تتوجها كؤوس تذكارية. ولتحية الرياضيين وتشجيعهم بمزيد من الحيوية والبهجة يمكن جلب مطلقي الهتافات والأغاني»[14].

ويعكس التغيير في برامج معسكرات الصيف الموقف الجديد من أن سنوات الطفولة يجب ألا تضيع في نشاطات لا تخدم سوى غرض المتعة. وإنما يجب استغلالها في صقل واتقان مهارات وقدرات تحاكي مهارات وقدرات الكبار. فالأطفال يقحمون مبكراً في صرامة تنافس الكبار. وقد نظم معسكر (دولارات وسنتات) في فلوريدا بحيث يحضر أعضاء

المعسكر وهم في سن لا تتجاوز الحادية عشرة محاضرات عن الصناديق التعاونية ويتعلمون كيف يقرأون صحيفة وول ستريت جورنال The Wall Street Journal. وتشكل المنافسة في المعسكر وفي البيت واحداً من أوضح الضغوط على الأطفال كي يكبروا بسرعة.

وهناك ضغوط أخرى كثيرة أيضاً. فكثير من الأطفال يسافرون اليوم في طول البلاد وعرضها، وعبر العالم أيضاً، بمفردهم. وقد أصبح ما يسمى «طفل يسافر بلا مرافق» أمراً عادياً لدرجة أن شركات الطيران رسخت أنظمة وقوانين خاصة من أجل أولئك الأطفال. وما هذه الظاهرة إلاّ نتيجة مباشرة لازدياد عدد حالات الطلاق بين أوساط الطبقة الوسطى وانتقال أحد الوالدين للعيش في مكان آخر من البلاد أو من العالم. وبالتالي يصبح الطفل مضطراً إلى السفر لزيارة أحد والديه. كما يسافر الأطفال بالطائرة بمفردهم لزيارة جديهم أو للذهاب إلى معسكر خاص أو منشآت تدريبية.

ويقدر مسؤولو الطيران أن 500,000 طفل، بعضهم بعمر لا يتجاوز خمس سنوات، يسافرون وحدهم كل سنة. مما دفع بعض شركات الطيران إلى اتخاذ ترتيبات خاصة لزبائنهم الصغار. فشركة كونتيننتال Continental Airlines لديها غرف «نادي» للأطفال في محطاتها الرئيسية في دينفر وهيوستون ونيوآرك. أما شركة ترانستار Transtar Airlines فلديها برنامج الزبون الدائم للأطفال. على الرغم من أن هذه التسهيلات تقدم

بعض العون إلاّ أن ركاب الطائرة الصغار ما زالوا يعتبرون مشاكل فريدة.

وتذكر غوين سوزا Gwen Souza المشرفة على رحلة شركة يونايتد United Airlines أنها سكنت روع فتاة صغيرة أصيبت بالهلع عندما شهدت الدورة الشهرية لأول مرة وهي على متن الطائرة. لم يكن أحد قد فسر لها ذلك الأمر فقامت سوزا بتلك المهمة. وقالت: «أعتقد أنني أضحكتها كثيراً من تلك التجربة».

ويذكر جيمس رايلي James Reilly مراقب رحلة PSA أن طفلاً في السادسة من عمره تعلق به عندما توقفت الطائرة بشكل غير متوقع في وقت متأخر من الليل في أريزونا. يقول رايلي: «كانت الدرجة مئة هناك حوالي منتصف الليل، وكان الطفل مذعوراً لدرجة أنه تعلق بي».

يقول رايلي إنه غالباً ما يشعر بالأسى لبعض الركاب الصغار خاصة أولئك الذين يتنقلون بين أبوين مطلقين ويضطرون إلى التكيف مع التغيير الدائم. ويقول: «إنهم يحدثوننا عن الطلاق، وحقوق الزيارة، وأبويهم، ومواعيد أبويهم. إن بعضهم يعاني من اضطراب حقيقي»(15).

على الرغم من أن طاقم الطائرة يعتني بشكل جيد بالأطفال الذين يسافرون بلا مرافق، كما تثبت هذه الأمثلة، إلاّ أن السفر بلا مرافق قد يكون مدعاة للشدة. وقد يتعاظم التوتر العادي

الذي يرافق السفر إذا أضيفت إليه مخاوف الطفل الشخصية. وكثيراً ما يسيطر على الأطفال الصغار خاصة إحساس بأنهم يتخلون عن آبائهم أو أن آباءهم يتخلون عنهم. فركوب طائرة مع أشخاص غرباء والذهاب إلى ترتيبات معيشية مختلفة تتطلب من الأطفال الصغار تكيفاً لا يقدر عليه سوى الكبار والأطفال الأكبر سناً.

وهناك أوجه أخرى للمجتمع تدفع الأطفال نحو النمو السريع. فالمحامون، مثلاً، يشجعون الأطفال على مقاضاة آبائهم لما يتسببونه من أنواع الأسى. في كاليفورنيا لجأت كيمبرلي آن آلبين Kemberly Ann Alpin التي ولدت لأبوين غير متزوجين وهي الآن في عُمر أربع سنوات ونصف السنة، إلى المحاكم مطالبة والدها بحق زيارته. بينما الوالد، الذي يقدم نفقات الإعالة، لا يريد أن يرى كيمبرلي. ومهما يكن قرار المحكمة أو ما تحققه القضية من مكاسب، فإنها تعكس ميل المحامين إلى إسباغ الحقوق القانونية للكبار على الأطفال. وفي ويست هارتفورد بولاية كونيكتيكت West Hartford, Connecticut، أقدم داڤيد بورن David Burn في السادسة عشرة من عمره على «طلاق» والديه قانونياً في سنة 1980 بموجب قانون جديد في الولاية. في الوقت الذي تكفل هذه الحقوق بعض المزايا، إلاّ أنها تضع الأطفال في موقف صعب لا يخلو من الشدة تجاه آبائهم.

كما أن وسائل الاتصال بالجماهير، ومنها الموسيقى والكتب

والأفلام والتلفزيون، تصور أبناء الجيل الفتي شخصيات نضجت قبل الأوان. وتتلاعب بهم وتقدمهم في أوضاع جنسية غير متحفظة. هذه الطرق في التصوير تجبر الأطفال على التفكير أن عليهم أن يتصرفوا كالكبار قبل أن يكونوا على استعداد لذلك.

يصور فيلم جمال أمريكي American Beauty فتاة مراهقة مغرية جنسياً، تجذب والد صديقتها، الذي يعاني من أزمة منتصف العمر، فيوشك على مضاجعتها. كما يحب المراهقون أغاني من نوع أغنية كريستينا أكيليرا Christina Aquilera بعنوان تعال إلي Come on Over التي توحي أن الصبي سيحصل على مباهج جنسية قبل أي مباهج أخرى إذا فعل. كما يقدم التلفزيون أمثلة كثيرة عن مراهقين ناشطين جنسياً في برامج مثل Dawson's Creek وفي إعادة عروض Married With Children. وما أشبه استعراضات مثل Bay Watch بنسخ متلفزة من Penthouse وPlayboy.

لا تقف وسائل الإعلام عند تشجيع الميول الجنسية لدى المراهقين فحسب وإنما تعزز ارتداء ثياب الكبار وتقليد تصرفاتهم أو لغتهم، واستراتيجياتهم الخاصة بالعلاقات بين الأشخاص. يأتي التشجيع الجنسي ضمن إطار اقتراحات ونماذج أخرى للنمو بسرعة. فقد لحظت دعاية Jordache Jeans منذ سنوات عدة فتاة صغيرة تركب على ظهر صبي تبرز الدعاية مضامين جنسية في الثياب وتعبير الوجه وتسريحة الشعر الخاصة بالكبار.

ولكن هل من الممكن استعجال نمو الجيل الفتي عاطفياً

أيضاً؟ يقر الأطباء والمحللون النفسيون أن العواطف والأحاسيس هي الجزء الأكثر تعقيداً في عملية النمو. فللمشاعر والعواطف توقيتها وإيقاعها الخاص الذي لا يمكن استعجاله. قد يبدو المراهقون الصغار كالكبار ويتصرفون مثلهم، لكنهم عادة لا يشعرون مثلهم. راقب مجموعة من المراهقين يتأرجحون على الأراجيح في ملعب للأطفال يستطيع الأطفال أن يكبروا بسرعة في بعض المجالات دون أخرى. والنضج العاطفي معقد وصعب في جميع الأحوال وخاصة عندما «ينطق» تصرف وشكل الأطفال بلغة الكبار بينما ما تزال مشاعرهم «تبكي» كالأطفال.

الطفل الدفين:

تكشف بعض التبعات الأكثر سلبية للاستعجال عن نفسها عادة في سني المراهقة، عندما تصطدم الضغوط باتجاه النضج السريع مع المحرمات المؤسساتية. إذ يجد الأطفال الذين دفعوا نحو النضج السريع فجأة أن كثيراً من امتيازات الكبار ـ التي افترضوا أنها من حقوقهم ـ كالتدخين، والكحول، والقيادة، وما إليها، لا تحق لهم قبل أن يبلغوا عمراً معيناً. يشعر كثير من المراهقين أنهم قد خدعوا من قبل مجتمع يدفعهم لأن يكبروا بسرعة على أن يبقوا أطفالاً في الوقت نفسه. وليس ما يدعو إلى الاستغراب أن ضغوط النمو السريع تؤدي غالباً إلى سلوك قلق ويثير القلق أثناء فترة المراهقة.

تعكس النتائج التي توصلت إليها دراسة أجريت في سنة 1985 اندفاعاً نحو التجربة ما هو إلاّ نتيجة من نتائج النمو السريع.

في أكبر دراسة عن تعاطي المخدرات أجريت حتى الآن اعترف ما يربو على 200,000 من الأطفال ما بين الصف السادس والثاني عشر بحرية التصرف بإثارة الفزع في أوصال أهلهم لو أنهم عرفوا بها. إن أطفالنا يتعاطون المخدرات بأعداد متزايدة ـ وفي أعمار أصغر فأصغر. إنهم يتناولون الحبوب ويدخنون Pot في حافلة المدرسة، ويسكرون في سياراتهم وفي بيوت أصدقائهم حتى أنهم يستنشقون الكوكائين في منازلهم(16).

ويتجلى الاندفاع نحو التجربة أكثر ما يتجلى في تصرفات المراهقين الجنسية. وعلى الرغم من أن بيانات أي بحث ليست دائماً موثوقة كما نتمنى أن تكون إلاّ أن جميع الدراسات تشير إلى زيادة هائلة في النشاط الجنسي بين صفوف المراهقين منذ عقد الستينيات. ففي أوائل الستينيات كان نحو 10 في المئة من البنات المراهقات ونحو 25 في المئة من الصبيان المراهقين ناشطين جنسياً. ومع دخولنا القرن الواحد والعشرين أصبحت نسبة المراهقين الناشطين جنسياً تربو على 50 في المئة، ونسبة الفتيات المراهقات الناشطات جنسياً أعلى قليلاً من نسبة الصبيان المراهقين الناشطين جنسياً. وقد علق البروفسور ميلڤين زيلنيك Melvin Zelnick أستاذ الصحة العامة في جامعة جون هوپكينز John Hopkins University قائلاً: لقد اختفت الأمور التي كانت تدعم الحفاظ على العذرية في الماضي ـ كالخوف من الحمل، أو تلويث سمعة العائلة.

وأبناء الجيل الفتي يدركون تماماً هذه النزعة، فقد قالت

فتاة في الثامنة عشر من عمرها في مدرسة ثانوية في ولاية لويزيانا إن: «نصف البنات في صف التخرج عذارى. ولكن أمر أولئك الصفين الأول والثاني في الجامعة لا يصدق. فعندما يتخرجن لا تجد بينهن عذراء واحدة».

يترتب على هذا التحرر الجنسي عدد من التبعات المقلقة، فهناك مليون فتاة مراهقة تصبح حاملاً كل سنة وهذه أعلى نسبة حوامل بين المراهقات في البلدان المتقدمة. 50 في المئة من الفتيات المراهقات الحوامل يلدن و40 في المئة منهن يجهضن و10 في المئة يسقطن حملهن. ويقدر أن 25 في المئة من الفتيات في عمر الرابعة عشرة اليوم سيحملن مرة واحدة في الأقل قبل أن يخرجن من فترة المراهقة.

المفرح هو أن نسبة الولادات بين أوساط المراهقات تتراجع باضطراد. وفي سنة 1995 كانت نسبة الحمل 90 ولادة لكل 1000 امرأة. وفي سنة 2001 أصبحت النسبة 50 ولادة لكل 1000 إمرأة. والمزعج هو أن هذا التراجع يعود معظمه إلى زيادة إمكانية الإجهاض أكثر مما هو تراجع في عدد المراهقات الحوامل. وعلى الرغم من أن نسبة الحمل بين المراهقات لم تتغير كثيراً خلال المئة سنة الماضية، إلاّ أن عدد المراهقات اللاتي يلدن خارج إطار الزوجية قد ازداد خلال هذه الفترة الزمنية. والآن نحو 50 في المئة من ولادات المراهقات هي لمراهقات غير متزوجات و 5 في المئة من هذه الولادات فقط هي التي تعطى لأسر تتبناها.

على الرغم من أن خطر الإيدز يبدو أنه قد غير تصرفات الكبار الجنسية، إلاّ أن الأمر ليس كذلك بالنسبة للمراهقين. فالمراهقون يشكلون حصة كبيرة من جميع حالات الأمراض التناسلية كل سنة، ويبدو أن حصتهم في ازدياد.

أسباب هذا النشاط الجنسي المعزز بين أوساط الجيل الفتي اليوم متعددة ومنوعة. فقد انخفض سن البلوغ مثلاً من السابعة عشر منذ نحو قرن إلى الثانية عشر ونصف اليوم. ويبدو لحسن الحظ، أن هذا هو الحد الأدنى الذي أمكن التوصل إليه بفضل التغذية والرعاية الصحية الجيدة. إلاّ أن سن البلوغ الأول هذا بقي ثابتاً على مدى العقدين الماضيين، وبهذا يمكن أن يفسر زيادة النشاط الجنسي للنساء الصغيرات خلال هذه الفترة. وهناك عوامل أخرى من ضمنها التغييرات السريعة في القيم الاجتماعية، وتحرر المرأة، وارتفاع نسبة الطلاق ارتفاعاً هائلاً، وتداعي السلطة الأبوية والمؤسساتية، والإحساس القاتل الذي غالباً ما لا يعبر عنه بالألفاظ، بأننا جميعاً سنموت في محرقة نووية لذلك «انس الدنيا وما فيها واستمتع بوقتك».

وعلى الرغم من أن وسائل الإعلام تلتقط هذه الميول الجنسية بسرعة وتستغلها في أغراض الدعاية كأن تسوق مستحضرات التجميل للفتيات في عمر الرابعة إلى تسعة أعوام من قبل صانعي الدمى، في حين أن الأسلوب المباشر للعارضة الشابة قد يكون أقوى وأكثر إقناعاً. يتكتم الأزواج عادة حول إبداء ميولهم الجنسية أمام أولادهم ـ لميل طبيعي نحو تحاشي

تعريض الأطفال لما قد لا يفهمونه، من جهة، ومن جهة أخرى لأنه بحلول الوقت الذي يولد فيه الأطفال تكون المرحلة الرومانتيكية في علاقة كثير من الأزواج قد انقضت.

لكن الآباء العازبين الذين يخرجون للقاء آخر يعتبرون نموذجاً مختلفاً تماماً بالنسبة للأطفال. ما لم نتطرق إلى التعقيدات الكثيرة التي تنجم عندما يحدث أن صديقاً من الجنس الآخر يمضي الليلة مع الأب أو الأم العازبين، فالعازبون لديهم ميول جنسية أكبر بكثير مما يبديه المتزوجون. وقد يشهد الأطفال الذين يعيشون مع أب أو أم عازبة المرحلة الرومانتيكية من الغزل ـ لمسة اليد، ونظرة العين، والدلال والملاطفة المستمرين. هذا النشاط الجنسي، بكل ما يعكسه من عواطف إيجابية، قد يشجع الصغار على البحث عن شيء مماثل.

وصحيح أيضاً، كما وجدت الأستاذة ماڤيس هيثرينغتون Mavis Hetherington من جامعة فيرجينيا في أبحاثها، أن بنات النساء المطلقات يبدين ميولاً جنسية، ويتبعن نزوات عابرة مع الرجال، أكثر من بنات الأمهات الأرامل أو البنات اللاتي نشأن في منزل يعيش فيه الأبوان معاً[17]. ولما كان عدد البنات المراهقات اللاتي عشن في بيوت تضم أحد الوالدين فقط، اليوم أكثر من أي وقت مضى يسهم ذلك في تعزيز النشاط الجنسي لدى فتيات اليوم المراهقات.

صحيح أن بعض الصغار من أبناء الأجيال السابقة قد

مارسوا الجنس في سن مبكرة، مما أسفر عن حمل، وأمراض تناسلية، وما إليها، إلاّ أنهم لم يشكلوا نسبة تذكر من عدد السكان. الجديد اليوم هو الأعداد، التي تشير إلى أن الضغوط التي تبذل من أجل الإسراع في النمو ضغوطاً اجتماعية وعامة أكثر مما هي أسرية وخاصة (تعكس نزعات الأبوين وحاجاتهما). وأن نسبة أبناء الجيل الفتي الذين يتعاطون المخدرات، وينشطون جنسياً ويتعرضون للحمل نسبة كبيرة لدرجة تحتم علينا النظر إلى المجتمع ككل إذا أردنا الحصول على تفسير كامل، بدل أن ندرس الآباء الذين يعكسونه.

يوازي هذه الزيادة في الميول الجنسية بين أوساط الجيل الفتي زيادة في عدد الأطفال الذين يعانون مما يعرف لدى الكبار باسم أمراض الشدة. وقد لحظ أطباء الأطفال تزايد أعراض الصداع، وآلام المعدة، وردود الفعل التحسسية، وما إليها لدى صغار هذه الأيام أكثر مما كانت لدى أطفال الأجيال السابقة. فقد شخص تصرف A المزاج العصبي، والميل إلى التنافس، والمتطلبات الكثيرة لدى الأطفال وارتبط بمستويات عالية من الكولسترول. كما ترافق مع ضغط من الوالدين باتجاه الإنجاز.

فهرس آخر للشدة التي يتعرض لها أطفال اليوم يتجلى في صحتهم الاجمالية. يقول الباحثون إن أطفال هذه الأيام يوشكون أن يصبحوا الأكثر بعداً عن المقاييس الصحية السليمة.

- 64 في المئة من أطفال اليوم الذين تتراوح أعمارهم بين

السادسة والسابعة عشر لا ينسجمون مع مقاييس المجلس الرئاسي للصحة واللياقة للفتى السليم البنية، و35 في المئة يعانون من عاملين يهددا بآفة قلبية، و42 في المئة لديهم نسب عالية من الكولسترول.

- 36 في المئة فقط من هؤلاء الأطفال يشاركون في برامج نشاط حركي يومياً. في المدارس الابتدائية يحضر نصف الطلاب حصصاً من هذا النوع مرة واحدة في الأسبوع، وتنخفض الأرقام انخفاضاً حاداً بعد ذلك.
- ازداد عدد الأطفال السمان بين عمر السادسة والحادية عشرة بقدر 54 في المئة خلال السنوات العشرين الماضية. أما ما بين الثانية عشرة والسابعة عشر فقد ارتفع الرقم بمعدل 30 في المئة(18).

كما ينعكس الضغط باتجاه النمو السريع في الإحصائيات التي تتعلق بالعنف في المدرسة. فقد توصل بحث أجراه مركز السيطرة على الأمراض والحد منها CDC في سنة 1993(19) إلى نتائج شملت جميع أرجاء البلاد مفادها أن:

- 16,2 في المئة من الطلاب اشتركوا في عراك داخل حرم المدرسة خلال العام الذي سبق إجراء البحث.
- وأن قرابة ثلث الطلاب سرقت ممتلكات شخصية لهم أو خربت عمداً داخل حرم المدرسة أثناء العام السابق.
- تعرض أكثر من 7 في المئة من الطلاب للتهديد أو الإصابة بسلاح داخل حرم المدرسة أثناء العام الدراسي

السابق، حيث تعرض الطلاب الذكور للتهديد والإصابة أكثر من الطالبات بشكل ملفت.

ويعتبر العنف وخطر العنف في المدرسة من عوامل الشدة القوية التي تترك آثاراً ملحوظة على الطلاب والمدرسين والطاقم الإداري وعلى عملية التعليم نفسها. فالشدة تضعف قدرة الأطفال على التعلم وقدرة المعلم على التعليم.

ويثبت بحث أجرته هيئة الأهداف التعليمية الوطنية سنة 1993[20] بالدليل كيف تؤثر الشدة على التعليم. حيث كان ما يربو على 22 في المئة من الأطفال في الصفوف 3 ـ 12 أقل حرصاً على الذهاب إلى المدرسة مما كانوا في السابق بسبب خطر العنف.

بالإضافة إلى أن 16 في المئة من الطلاب قالوا إنهم أقل استعداداً للحديث في الصف خوفاً من الاتهامات المضادة من قبل الطلاب الآخرين. 25 في المئة على الأقل من جميع الطلاب من صفوف 3 ـ 12 قالوا إن مستوى العنف الذي تعرضوا له أو شهدوه كان له تأثير ضار على تعليمهم. كما أفاد البحث أن 7 في المئة من طلاب الصف الثامن لزموا بيوتهم وانقطعوا عن المدرسة في الشهر السابق خوفاً من العنف في المدرسة. وقد خلص البحث الذي أجرته مراكز السيطرة على الأوبئة والحد منها الآنف الذكر (1995)، إلى أن 4,4 في المئة من الطلاب من جميع أنحاء البلاد قد ضيعوا يوماً واحداً من أيام الدراسة على الأقل خلال الأشهر الستة السابقة لأنهم شعروا

بالتعرض للخطر سواء في المدرسة أو على الطريق منها وإليها. وكان الطلاب الأمريكيون من أصل أفريقي أو من أمريكا اللاتينية، الذكور منهم والإناث أكثر انقطاعاً عن المدرسة من الطلاب البيض، الذكور والإناث، لشعورهم بخطر يتهددهم.

وقد كانت النتائج الأكثر إثارة للقلق التي خلصت إليها الأبحاث الأخيرة عن الشباب هي زيادة تواتر شراء الأسلحة للمدارس. وعلى الرغم من أن نسبة الزيادة تتفاوت حسب الولاية وحسب التجمعات السكانية، إلاّ أن حقيقة وجود الزيادة تنطبق على الجميع ما بين عامي 1987 و 1992 مثلاً، ارتفعت نسبة حيازة السلاح بمعدل 138 في المئة في أواسط تكساس.

في هذه الدراسة[21]، كان الأشخاص الذين يحملون سلاحاً، أكثر تعرضاً للخطر من سواهم من الذين لا يحملون، كما كانوا أكثر سعياً وراء المخاطر، وأكثر ميلاً لتعاطي الكوكائين، ولأن لا يكون لديهم استراتيجيات تذكر لتفادي القتال كما كانوا يشعرون بحاجة أكبر إلى القتال تحت ظروف كثيرة. ولدى إجراء دراسة بين أوساط المعلمين قال الباحثون إن احتمال أن يحصل الطلاب الذين يحملون سلاحاً على علامات منخفضة كان أكبر بثلاثة أضعاف الطلاب الذين لا يحملون سلاحاً[22].

وعلى الرغم من أن قصص العنف المدرسي القاتل نادرة لحسن الحظ، إلاّ أن تأثيرها يضخم بشكل كبير بالاهتمام الذي

تحيطه بها أجهزة الإعلام. نستعرض هنا بضعة أمثلة عن حالات العنف المدرسي الأكثر تطرفاً:

في سنة 1989، في بورتلاند، كونيكتيكت، فصل أحد صغار طلاب المدرسة الثانوية فصلاً موقتاً لأنه رفض خلع قبعته. فعاد إلى المدرسة يحمل بندقية وقتل البواب وأصاب المدير وأمين السر بجروح خطيرة.

وفي سنة 1996 دخل طالب في سلك الشرف، في عمر 14 سنة في موسيس ليك واشنطن، حصة الحساب مسلحاً ببندقية عالية القوة وقنبلتين يدويتين. أطلق النار فأردى طالبين وأستاذاً وأصاب طالباً آخر بجراح خطيرة.

في سنة 1996 استشاط مراهق في لينقيل تينيسي غضباً إثر حادث مروري، فحمل بندقية إلى قاعة مدرسة مزدحمة وأطلق النار، مما أسفر عن مقتل أستاذ وتلميذ.

وفي سنة 1998 أطلق طالبان في عمر 13 و11 سنة جرس إنذار الحريق في مدرسة ويست سايد المتوسطة في جونسبورو، آركانساس، ثم ركضا إلى الأشجار القريبة من المدرسة. وعندما اندفع الطلاب والأساتذة خارج المبنى، أطلقا عليهم النار مما أدى إلى مقتل أستاذ وأربعة تلاميذ. وإصابة أحد عشر تلميذاً آخرين بجروح[23].

وقد كانت آخر عملية إطلاق نار في إحدى مدارس كولومباين Columbine الثانوية مثالاً آخر، أكثر فظاعة، عن ظاهرة العنف المدرسي. ليس هناك أي أمثلة سهلة للعنف

المدرسي كما تعتبر الأمثلة المدرجة أعلاه فريدة يستحيل توقع حدوثها. ولكن على الرغم من تراجع العنف المدرسي إجمالاً خلال السنوات الأخيرة من القرن العشرين، إلاّ أن مخاوف الطلاب من العنف المدرسي تتزايد باستمرار.

يرتبط العنف المدرسي غالباً بكمية العنف الذي يشاهده الأطفال على شاشة التلفزيون. إلاّ أن ذلك الارتباط ضعيف في حين أن التلفزيون قد يساهم في خوف الجيل الفتي من العنف. وقد أشار بحث أجري مؤخراً[24] على شريحة تمثيلية واسعة تربو على 3,000 برنامج أذيعت بين الساعة 6 صباحاً و11 ليلاً، ركز على دراسة كمية ونوع العنف المصور. وقد وجد الباحثون أن العنف ورد في أغلبية البرامج، وكان غالباً يتألف من تصرفات عدوانية تمر بلا عقاب وتشكل جزءاً أساسياً في قصة مضحكة. ونادراً ما كانت البرامج تنوه باحتمال وجود تبعات في المدى البعيد للعنف أو أن يقدم في إطار قد يوحي بموضوع مضاد للعنف. وقد استحوذ تأثير العنف التلفزيوني على تصرفات الأطفال العدوانية على قدرٍ كبير من الاهتمام حال دون الاهتمام بتأثير أكثر قوة: وهو الخوف من العنف المنتشر بشكل كبير بين أوساط الجيل الفتي، حتى في أماكن كانت في فترة ما تعتبر آمنة، وهي المدارس.

آخر ظاهرة لها علاقة بالاستعجال تفشت بين أوساط المراهقين، وأريد مناقشتها، هي انتحار المراهقين. بشكل عام ترتفع نسبة حوادث الانتحار في جميع مراحل الحياة. وعلى

الرغم من أن الحوادث قليلة في مرحلة الطفولة إلاّ أن عدد حوادث الانتحار يرتفع بشكل حاد في فترة المراهقة. في سنة 2001 كان الانتحار ثالث سبب عادي للموت بين المراهقين بعد حوادث الدراجات النارية والقتل. (بعض حوادث الدراجات النارية تحدث بنيّة الانتحار)[25]. وقد تضاعفت نسبة الانتحار ثلاثة أضعاف خلال السنوات الثلاثين الماضية. وعلى الرغم من أن الدوافع وراء انتحار المراهقين كثيرة ومعقدة، ولكن ليس من الشطط في شيء أن نفترض أن بعض الضغوط التي تمارس حالياً على المراهقين لاستعجال تقدمهم، بدءاً من التنافس على العلامات العالية ودخول الجامعات الجيدة، إلى الضغوط التي تدفع إلى تعاطي المخدرات والنشاط الجنسي، كلها ضغوط تسهم في زيادة عدد أبناء الجيل الشاب الذين يضعون حداً لحياتهم بأيديهم.

وكثيراً ما يظهر الانتحار بين أوساط المراهقين في جماعات غالباً ما تضرب في ضواح غنية. في عقد السبعينيات شهدت جماعات غولد كوست على الجانب الشمالي لبحيرة شيكاغو زيادة بقدر 250 في المئة في حوادث الانتحار. حدث ذلك على الرغم من الجهود الحثيثة التي بذلها مجتمع تلك الناحية لمنع الانتحار. في ذلك المجتمع (كما في مجتمعات أخرى نأتي على ذكرها أدناه) أصبح خليط الغنى، والضغط الشديد والخلافات الزوجية، والمخدرات والفشل في الدراسة خليطاً قاتلاً بالنسبة لبعض أبناء جيل الشباب.

تقول شابة في التاسعة عشرة من عمرها من غلينكو، إليونيس: «لدينا عدد مرعب من حوادث الانتحار بالنسبة لمجتمع بحجم مجتمعنا». أقدمت إحدى صديقات تلك الشابة على قطع شرايين رسغها، بينما أقدمت اثنتان أخريان على صدم سيارتهما بشجرة. «عندما تكبر في هذا المكان، يقدم كل شيء إليك على طبق كبير، لكن هناك شيء ينقصك. الشيء الوحيد الذي لا يقدمه الوالدان هو الحب، والفهم، وقبولك كإنسان». تقول ايزادورا شيرمان Isadora Sherman من وكالة الأسرة والمجتمع اليهودي في هايلاند بارك، Highland Park' Jewish Family and Community Service.

«يكثر الناس من العطاء المادي لأولادهم، لكنهم يتوقعون الكثير بالمقابل. لا أحد يرى أولاده في مستوى متوسط، والأولاد الذين لا يرقون إلى مستوى الأداء المطلوب يعاملون بما يشعرهم بأنهم فاشلون»[26].

في عقد الثمانينيات حدثت موجات من الانتحارات الجماعية في ضواح غنية أخرى تمتد بين پلانو في ولاية تكساس Plano, Texas إلى ويستشستر في ولاية نيويورك Westchester, New York ولم يكن نمط الانتحارات الجماعية التي شهدتها ضاحية بيرجينفيلد Bergenfield في ولاية نيوجيرسي شاذة. ففي أوائل آذار/ مارس من سنة 1987، قاد أربعة مراهقين من بيرجينفيلد سيارتهم الكامارو ذات اللون البني داخل مرآب لا يستخدمه أحد، وأغلقوا الباب، وتركوا المحرك يدور وانتظروا.

أتى حادث الانتحار المتعمد هذا في أعقاب وفاة أربعة مراهقين من بيرجينفيلد في ظروف ملابسات غريبة خلال الأشهر التسعة السابقة. وبعد ذلك بفترة قصيرة توفي مراهق آخر من بيرجينفيلد اختناقاً بدخان السيارة في مرآب مغلق. وفي اليوم التالي وجدت فتاتان مراهقتان في آلسيب، ولاية إيليونيس، ميتتان في ظروف مماثلة.

يوجز الأخصائي النفسي هارولد ڤيزوتسكي Harold Visotsky من شيكاغو كيف يؤدي الضغط نحو الإنجاز في عمر مبكرة، ونحو النمو والنجاح السريع، إلى الإسهام في انتحار المراهقين فيقول: إن الأشخاص على الجانب المنخفض من السلم الاجتماعي لا يتطلعون إلى ما يتطلع إليه أولئك الأشخاص. ومهما كان الغضب الذي يشتعل بين جنبات الفقراء فإنهم ينفثون عن غضبهم، مهما يكن حاداً، بطرق معادية للمجتمع - بالتخريب المتعمد للممتلكات، والقتل، والتظاهر - والإحساس بالبؤس المشترك الذي يجمع بين الجماعات ذات الدخل المنخفض يحول بينها وبين الإحساس بالعزلة. أما بالنسبة لأبناء الأثرياء فإن الخشخيشة تدخل في الفم والقدم تصعد السلم الاجتماعي. وتسيطر أخلاقية التنافس على مقاليد الأمور تاركة الطفل في عزلة متنامية. فيقتص من نفسه أكثر مما يسقط غضبه على المجتمع»[27].

يولي المراهقون اهتماماً كبيراً برأي الآخرين. فالفشل بالنسبة إليهم حدث سنة، يجعل المراهق يشعر برفض الناس

له. ويؤلمه كثيراً الإحساس أن الجميع يعرفون، مما قد يدفعه إلى محاولة الانتحار. وأعتقد أن استعجالنا لأطفالنا قد أسهم في الارتفاع غير العادي لنسبة الانتحار بين صفوف الجيل الفتي خلال العقد الماضي.

ماذا بعد النضج!

سُئل سيغموند فرويد Sigmund Freud مرة أن يصف مقومات النضج، فأجاب: (الحب والعمل). الشخص الكبير الناضج شخص يستطيع أن يحب وأن يترك الآخرين يحبونه ويستطيع أن يعمل بشكل منتج ومفيد وهو راضٍ عن عمله. إلاّ أن معظم المراهقين، وجميع الأطفال طبعاً، ليسوا قادرين على العمل أو الحب بالطريقة الناضجة التي يتحدث فرويد عنها. الأطفال يحبون والديهم بطريقة مختلفة تماماً عن حبهم الشريك الحقيقي أو المحتمل. وكثير من أبناء الجيل الفتي، ما لم نقل معظمهم، لن يجدوا العمل الذي سيمتهنونه إلاّ في مرحلة متقدمة من أوائل سن الرشد.

وفي الوقت الذي يتوقع من الأطفال التصرف والتفكير وارتداء ثياب كالراشدين، فإنهم في الحقيقة يطالبون بانتحال شخصية ليست شخصيتهم، لأن جميع زخارف الرشد لا تجعلهم راشدين بالمعنى الصحيح لعبارة (يحب ويعمل). المفارقة هي أن الآباء الذين لا يتركون أطفالهم يعتقدون بوجود سانتا كلوز أو أرنب الفصح ـ لأنها تخيلات وبالتالي فهي تنطوي على خداع ـ يسمحون لأطفالهم بالظهور بمظهر الراشدين

والتصرف مثلهم، دون أي إحساس بأن السماح لأطفالهم بطرح أنفسهم بهذه الطريقة التي تحاكي الراشدين إنما هو ضرب من الغش أيضاً.

والمفارقة الأكبر هي أن الممارسات التي كانت من خصائص المواطنين ذوي الدخل المنخفض أصبح لها الآن بريق أناقة الطبقة الوسطى. فالطلاق، ورعاية الطفل من قبل أحد الأبوين دون الآخر، والزوجان العاملان، والعيش المشترك خارج إطار الزوجية، هذه الممارسات كانت سائدة بين أوساط العائلات المنخفضة الدخل لعقود مضت. وكثيراً ما كان الدافع وراء ترتيبات من ذلك القبيل هو الحاجة الاقتصادية، ومن هنا كان أطفال تلك الأسر ذات الدخل المنخفض يدفعون إلى النمو بسرعة بسبب الضرورة. وكان أولئك الأطفال موضع شفقة واحتقار آباء الطبقة الوسطى والعليا الذين كانوا يساهمون في تأمين ملاجئ مثل «بيت المشردين الصغار» في بوسطن.

واليوم أصبح الطلاق سمة الأبوين ذوي الدخل المتوسط. كما أصبحت رعاية الأطفال من قبل أحد الأبوين أو الحياة المشتركة خارج إطار الزواج أموراً عادية لا أحد يتوقف عندها. إلا أن أطفال ذوي الدخل المتوسط لم يواكبوا التوليفات التي تتطلبها هذه التغييرات الراشدة. في السنوات الخالية كان طفل الأسرة ذات الدخل المنخفض يقدر الحاجة لتولي مسؤوليات الكبار في مرحلة مبكرة، فالأسر كانت بحاجة إلى الدخل الذي يستطيع عمل الطفل في مزرعة أو معمل أن يعود به، كما أن

الأعمال المنزلية الخفيفة ومهام تربية الأطفال قد أوكلت لأعضاء أصغر سناً داخل الأسرة. إلا أن الطفل الذي ينتمي إلى أسرة متوسطة الدخل اليوم يصعب أن يرى الحاجة لأن يحال إلى عناية جليسة أطفال أو أن يرسل إلى دار للحضانة أو إلى مركز رعاية نهاري في حين لديه باحة واسعة أو غرفة العاب لطيفة في المنزل. ليس طلاق الوالدين هو الذي يزعج أطفال الطبقة الوسطى، وإنما إدراكهم أنه غالباً يبدو أمراً غير ضروري، ويعكس بوضوح حاجة الآباء وليس حاجة الأبناء. وكما سنرى فإن الإحساس بالاستقلال، من قبل الوالدين، وإفراغ الطفولة من هويتها وخصوصيتها دون سبب منطقي هو الذي يشكل الضغط الرئيسي للاستعجال وهو الذي يتسبب بكل ما يعانيه أطفال الأغنياء من تعاسة اليوم.

وما من شك في أن الميل إلى تمويه الخطوط الفاصلة بين الأطفال والراشدين جزء من حركة مساواتية واسعة في جميع أرجاء البلاد تسعى إلى التغلب على الحواجز التي تفصل بين الجنسين، وبين الجماعات العرقية والدينية، والمعاقين. إننا نلمس هذه النزعة في الثياب وتسريحات الشعر الموحدة، وفي المطالبة بإعطاء الأجور نفسها في العمل، وفي المطالبة بالتصرف الإيجابي، وفي النداءات والتشريعات التي تتيح للمعاقين فرصاً مساوية لغيرهم في التعليم والعمل المهم.

من هنا يعتبر الضغط الحالي للإسراع في نمو الأطفال مجرد وجه واحد من ظاهرة اجتماعية أوسع بكثير تنتشر في هذا

البلد ـ حركة باتجاه المساواة الحقيقية، باتجاه النموذج الذي يتحدث عنه (إعلان الحرية). وفي الوقت الذي لا يستطيع المرء سوى أن يصفق لهذه الحركة. وخاصة ما يتعلق بالتعامل مع الجنسين، والجماعات العرقية والدينية، والمعاقين، إلاّ أن شمولها الأطفال ما زال بعيد المنال، للأسف.

يحتاج الأطفال إلى الوقت كي يكبروا، ويتعلموا، ويتطوروا. وليس في معاملتهم بشكل مختلف عن معاملة الراشدين أي تحامل أو تحيز ضدهم وإنما هو اعتراف بوضعهم الخاص. كما أننا إذ نقدم برامج ثنائية اللغة للأطفال المتحدرين من أمريكا اللاتينية، فإننا لا نتحيز ضدهم وإنما نستجيب لحاجاتهم الخاصة، التي إذا لم تول حقها من الاهتمام، فإنها قد تحرمهم من تحصيل تعليم ناجح كما قد تحرمهم من المساواة الحقيقية. بالطريقة نفسها، فإن بناء منزلقات للطلاب المعاقين يساعد في حصولهم على فرصة مماثلة لسواهم. ليس إدراك الحاجات الخاصة تحيزاً. بل على العكس، إنه الطريقة الوحيدة التي يمكن تحقيق المساواة الحقيقية بواسطتها.

جميع الأطفال لديهم، تجاه الراشدين، حاجات خاصة ـ ثقافية، واجتماعية، وعاطفية. فالأطفال لا يتعلمون ولا يفكرون ولا يشعرون مثل الراشدين. وليس في تجاهلنا هذه الاختلافات، ومعاملتنا الأطفال معاملة الراشدين، أي ديموقراطية أو مساواة. إذا تجاهلنا الحاجات الخاصة للأطفال، فإننا نتصرف كما لو أننا حرمنا أطفال القادمين من أمريكا اللاتينية أو

الهنود البرامج الثنائية اللغة، أو كأننا نحرم المعاقين منزلقاتهم أو أدوات توجههم. والحقيقة هي أن الاعتراف بالحاجات الخاصة لمجموعة ما وتلبية تلك الحاجات هو الطريق الحقيقي الوحيد لضمان المساواة وتكافؤ الفرص الحقيقي.